العدد ٢٠٠١/٤٩

الأحد ٩ كانون الأول

تذكار حبل القديسة حنة

جدَّة الإله

اللحن الثاني

إنجيل السَحَر الخامس

الرسالة

(غلاطية ٤:٢٢–٢٧)

يا إخوةُ إنَّهُ كانَ لإبرهيمَ إبنانِ أحدُهما منَ الجاريةِ والآخرُ من الحرَّة* غيرَ أنَّ الذي منَ الجاريةِ وُلِدَ بحسَبِ الجسدِ أمَّا الذي من الحرَّة فبالموعِدِ* وذلكَ إنَّما هو رمزٌ. لأنَّ هاتينِ هما العهدانِ أحدُهما من طورِ سيناءَ يَلِدُ للعبوديَّةِ وهو هاجَرِ* فإنَّ هاجَرَ بل طورَ سيناءَ جَبلٌ في ديارِ العربِ ويُناسِبُ أورَشليمَ الحاليَّة. لأنَّ هذه حاصِلةٌ في العبوديَّةِ معَ أولادها* أمَّا أورَشليمُ العُليا فهي حُرَّةٌ وهي أمُّنا كُلِّنا* لأنَّهُ كُتِبَ إفرحي أيَّتُها العاقِرُ التي لم تَلِد. أهتِفي واصرخي أيَّتُها التي لم تَتَمخَّضْ، لأنَّ أولادَ المهجورةِ أكثرُ من أولادِ ذاتِ الرجل.

الإنجيل

(لوقا ١٣:١٠–١٧)

في ذلكَ الزمانِ كان يسوعُ يعلِّمُ في أحدِ المجامع يومَ السبتِ* وإذا بامرأةٍ بها روحُ مرض منذ ثماني عَشْرَةَ سنةً وكانت منحنيةً لا تستطيعُ أن

الحبل بلا دنس

أصدر البابا بيوس التاسع، سنة ١٨٥٤،منشورًا بابويًّا بعنوان: Deus Ineffabilis أعلن فيه: «إنَّ العذراء المباركة مريم، منذ اللحظة الأولى للحبل بها، حُفظت طاهرةً من كلِّ دنس الخطيئة الجديَّة، بواسطة نعمة وامتياز الله القدير وحدهما، وبالنظر لاستحقاقات يسوع المسيح مخلص الجنس البشري».

هذه العقيدة التي أعلنتها الكنيسة الكاثوليكية بشكل رسمي في القرن التاسع، ترجع في أصولها إلى القرن التاسع عشر، وقد دارت حولها منذ القرن الثاني عشر مناقشات عديدة بين اللاهوتيين السكولاستيكيين (المدرسيين) امتدت إلى عدَّة قرون.

تعلن هذه العقيدة أنَّ الحبل بالعذراء مريم كان استثنائياً لأنَّه كان خاليًّا من كل ارتباطٍ بخطيئة الإنسان الأول، آدم وحوَّاء، المسمَّاة «الخطيئة الجديَّة» أو «الخطيئة الأصليَّة». ورد في كتاب «الحياة الإلهيَّة للعذراء مريم الفائقة القداسة» (توزيع دير سيدة البشارة – ذوق مكايل):«... وفي هذه اللحظة (أي لحظة الحبل بها) اختُطفت القديسة حنة اختطافًا ساميًّا أُعطيت في اثنائه أنوارًا ساطعةً على الأسرار الأكثر عمقًا...».هذا يعني أنَّ حبل القديسة حنَّة بالعذراء كان بطريقةٍ إلهيَّة عجائبيَّة.

لا تكمن المشكلة في طهارة العذراء مريم الفائقة القداسة، إنَّما في مفهوم اللاهوت الغربي للخطيئة الأصليَّة التي يرثها كل البشر بسبب خطيئة آدم. أي، وبحسب اللاهوت الغربي، كلُّنا مسؤولٌ عن عصيان آدم، لذلك نحمل خطيئته. لذا يجب أن تُنزَّه العذراء مريم من الخطيئة الأصليَّة لتكون أهلاً لاستقبال الإله المتجسِّد من الروح القدس في أحشائها البتوليَّة، وكان الحل «نعمة وامتياز الله القدير وحدهما، واستحقاقات يسوع المسيح مخلِّص الجنس البشري» (كما ورد في المرسوم البابوي أعلاه). هذا يعني أنَّ الحوار بين رئيس الملائكة جبرائيل ومريم العذراء (راجع لو١:٢٦–٣٨) كان شكليًّا خاليًّا من هدفه الحقيقي وهو الاختيار الحر للطبيعة البشريَّة بقبول الخلاص.

لنعد إلى التعريف بـ«الخطيئة الجديَّة» أو «الخطيئة الأصليَّة». إنَّها معصية آدم لوصايا الله، ومحاولته أن يصبح بالمعرفة إلهًا بعيدًا عن الله. فقد

وقع آدم في الكبرياء وعدم الطاعة، لذلك حصد الموت. لذلك يشهد بولس الرسول، في رسالته إلى أهل فيليبي (٢:٥-٨) لتواضع المسيح وطاعته اللذين بهما خلّص العالم على الصليب.بالإضافة إلى أنَّ الإنسان لا يحمل بالولادة خطيئة آدم – أي أننّا لا نرث الخطيئة الأصليَّة – لأن آدم مسؤولٌ شخصيًّا عن خطيئته. لكن، لأنَّنا من صُلبه، نحن نحمل بالتناسل البشري ما نتج عن خطيئته أي: التعب والجوع والعرق والمرض وأخيراً الموت وفساده أي إنحلال الجسد في القبر، كشجرة أصلها مريض، فتكون حينئذٍ ثمارها مريضة. يقول الرب في سفر حزقيال النبي (إصحاح ١٨): «... ما لكم أنتم تضربون هذا المثل على أرض إسرائيلَ قائلين الآباء أكلوا الحِصْرِم وأسنانُ الأبناء ضَرِسَتْ... النفس التي تخطئ هي تموت... وأنتم تقولون لماذا لا يحملُ الإبن من إثم الأب؟ أمّا الإبن فقد فعل حقًا وعدلاً حَفِظَ جميعَ فرائضي وعمل بها فحياةً يحيا. **النفس التي تُخطئ هي تموت**. الإبن لا يحمل من إثم الأبِ والأبُ لا يحمل من إثمِ الإبن. برُّ البارِّ عليه يكون، وشرُّ الشرير عليه يكون... هل مسرَّةً أُسَرُّ بموتِ الشرير؟ يقول السيِّد الرب. ألا برجوعه عن طُرُقِهِ فيحيا؟...» (قارن مع المزمور ٦٢:١٣). وقال الرب في العهد الجديد، مجددًا ما علّم به في العهد القديم: «أقول لكم إنَّ كلَّ كلمةٍ بطّالةٍ يتكلّم بها الناس سوف يُعطُونَ عنها حسابًا يوم الدين. لأنك بكلامك تتبرَّر وبكلامك تُدان» (متى ١٢:٣٦-٣٧ قارن مع متي ١٦: ٢٧ ورو٢:٢٣). هذا يعني أنّنا لسنا مسؤولين عن خطيئة آدم، إنّما نحصد ما زرعه آدم لأنّنا من صُلبه. إذًا لا يحمل الجنس البشري والعذراء مريم الخطيئة الأصليَّة، إنّما كما نحن أيضًا، ما نتج عنها. هذا واضح في كلام الرسول بولس: «إذ الجميع أخطأوا وأعوزهم مجد الله» (رو٣:٢٣) (راجع أيضًا رو٥ :١٢ وغلا ٣:٢٢-٢٣). لكن هذا لم يمنع الذين ساروا مع الله في العهد القديم من الجهاد ضد الخطيئة والشر وتجارب الشيطان، كما لم يمنع عنهم بالكليَّة نعمة الله التي رافقتهم وظلّلتهم في مسيرة جهادهم (راجع عبر ١١). إذاً لقد وُجد حقًا أبرار في العهد القديم لم يكن الله غاضبًا عليهم وهذا ما يؤكده أيضًا في العهد الجديد (راجع لو ١:٦ و٢:٢٥و٣٠-٣١) وأيضًا (متى ١:١٩ و٢٣:٣٥).

من هنا نستطيع أن نفهم سرَّ قداسة العذراء، لا على ضوء النعمة الخاصة الاستثنائية التي أُعطيَت لها من الله حين حُبل بها بلا دنس، وكأن لا دور لها على الإطلاق في هذه القداسة؛ بل على ضوء عمل نعمة الله عبر جهادها الشخصيِّ من أجل الكمال والفضيلة بصمتٍ وتواضع، وأيضًا عبر جهاد أبويها القدِّيسَين يواكيم وحنَّة، بل وحتى من سبقوهم من أبرار العهد القديم في الإيمان بالبر الذي بيسوع المسيح. «إذًا قد كان الناموس مؤدِّبنا إلى المسيح لكي نتبرَّر بالإيمان» (غلا٣: ٢٤).

قداسة العذراء هي إذًا ثمرة قداسة العهد القديم كله، وهي الممثِّلة الحقيقيّة للجنس البشريِّ في قبوله الطوعيِّ للخلاص بيسوع المسيح: «هوذا أنا أمةُ الرب. ليكن لي كقولك». (لو١:٣٨). «وكما تجسَّد هو بملء إرادته، هكذا أراد أن تلده أمه بحريَّةٍ وبملء إرادتها» (نقولا كاباسيلاس في عظته حول البشارة). الكتاب المقدَّس والآباء القديسون يعتبرون أنَّ هناك فعلاً نعمةً خاصة استثنائيةً حلّت على العذراء، إنما ليس وقت الحبل بها، بل وقت حَبَلها بالسيِّد، تطهّرها كليًّا وتُعِدُّها من أجل اقتبال ذلك الحدث الفريد الاستثنائي، وهو تنتصِبَ البتَّةَ* فلمَّا رآها يسوعُ دعاها وقال لها إنَّكِ مُطلَقَةٌ من مرضِكِ* ووضع يدَيْهِ عليها وفي الحال استقامَتْ ومجَّدَتِ الله* فأجابَ رئيسُ المجمع وهو مُغْتاظٌ لإبراءِ يسوعَ في السبتِ وقال للجمع هي ستَّةُ أيَّامٍ ينبغي العملُ فيها. ففيها تأتون وتَسْتَشْفون لا في يوم السبت* فأجابَ الربُّ وقال يا مُرائي أليس كلُّ واحدٍ منكم يَحُلُّ ثورَهُ أو حمارَهُ في السبتِ مِنَ المذوَدِ وينطلِقُ بهِ فيسقيهِ* وهذهِ وهي ابنةُ إبرهيمَ التي ربَطها الشيطانُ منذ ثماني عَشْرَةَ سنةً أمَا كان ينبغي أنْ تُطلَقَ مِنْ هذا الرباطِ يومَ السبت* ولمَّا قال هذا خَزِيَ كلُّ من كان يُقاوِمُهُ وفرح الجمْعُ بجميعُ الأمور المجيدَةِ التي كانت تَصْدُرُ منهُ.

تأمل

بينما يستريح اليهود جسديًا عن طريق العطلة (يسبتون)، يعطي يسوع عن طريق أعماله وبطريقة أصيلة المعنى الحقيقي للسبت. لقد استراح الله في اليوم السابع من جميع أعماله لكنه لم يبقَ بطالاً بعد ذلك. اليوم السابع هو فترة عناية الله الدائمة بالعالم، فترة تدخلاته الدائمة في تاريخ البشرية عن طريق رسالة الأنبياء،

عن طريق إرشاده لشعبه، وأخيرًا عن طريق رسالة ابنه. لذلك يستطيع يسوع أن يقول: «أبي يعمل وأنا أعمل».

كذلك المسيحي، الذي يرى في وجه يسوع المسيح المسيا ومؤسس الدهر الجديد والبشرية الجديدة، يستطيع أن يتحرّر من حرفيّة الناموس لا بمعنى انه يجب علينا أن نلغي السبت (أي نهار الأحد الذي أخذ مكان السبت اليهودي) لأول ظرف، بل بمعنى ان الإحسان في يوم السبت يشكّل التعبير الأفضل لإكرام الله العامل بتواصل من أجل العالم.

في المخطوطة D (من القرن السادس تحتوي على النصّ الكامل للعهد الجديد) في لوقا ٦:١ حيث يتكلّم يسوع عن اجتيازه مع تلاميذه بين الزروع نهار السبت، بقي قول «شفهي» ليسوع: «في ذلك اليوم رأى واحدًا يعمل نهار السبت فقال له أيها الإنسان إن كنت تعلم ما تصنع فأنت مغبوط وإن كنت لا تعلم أصبحت مخالفًا وملعونًا من الناموس».

إن افترضنا ان العمل الحاصل هو عمل محبّة، نستطيع أن نفهم القول السابق كما يلي: إن كنت أيها الإنسان تعلم ان المحبة بالنسبة لأبناء الله هي فوق كل وصايا

تجسُّد ابن الله من دمائها الطاهرة: «الروح القدس يحلُّ عليك وقوَّة العليِّ تُظللك...» (لو١:٣٥) وهذا لا يتعارض مع حريَّتها الشخصيَّة ودورها الأساسي في التجسد. لأنَّه لو كان التجسُّد مشروطًا بالامتياز المُعطى للعذراء توقُّعًا لاستحقاقات ابنها لتمَّ مجيءُ المسيح إلى العالم في أيِّ وقتٍ آخر من التاريخ، إذ كان الله قادرًا في أيِّ وقتٍ أن يخلق الأداة النقيَّة لتجسُّد ابنه، وبقرارٍ خاصٍّ لا يخضع إلاَّ لإرادته، بغضِّ النظر عن حريَّة الإنسان المساهم في تقرير مصير العالم الساقط.

لقد كانت العذراء محميَّة من كلِّ دنس، لكنَّها لم تُعْفَ من نتائج خطيئة آدم لأنَّها من نسله، هذه الخطيئة التي لم تكن لتُقْتَلَعْ من الإنسانية إلاَّ بشخص الكلمة الإلهي. إذًا بالنسبة للعذراء كما هي الحال بالنسبة ليوحنا المعمدان، هذه القداسة لا تكمن في امتياز خاص بل بتبدُّل حقيقي في الطبيعة الإنسانية التي طُهِّرت تدريجيًّا ورُفعت بالنعمة خلال الأجيال السابقة.

هذا الارتقاء المتواصل لطبيعتنا، المعدَّة لتصبح طبيعة ابن الله المتجسِّد، يتواصل في حياة مريم. ففي عيد دخولها إلى الهيكل (٢١ تشرين الثاني) يشهد التقليد لهذا التقديس المستمر وللحماية التي تمارسها النعمة الإلهيَّة ضدَّ أيِّ دنس من الخطيئة.

أمَّا بالنسبة إلى لورد، فإن تفحصنا الكلمات المسموعة من برناديت يظهر أن السيدة العذراء تكلَّمت مرَّةً واحدةً فقط طوال فترة ظهوراتها الخمسة عشر، كي تعلن اسمها. قالت: «أنا الحبل بلا دنس». فلنلاحظ أن هذه الكلمات قيلت في ٢٥ آذار ١٨٥٨، أي يوم عيد البشارة، وتُشير إلى **الحبل بابن الله بلا دنس.**

كتاب «ينبوع المعرفة» للقديس يوحنا الدمشقي

لقد كتب معلّم البيعة، القديس يوحنا الدمشقي (٦٥٠-٧٥٠)،الذي تعيّد له الكنيسة في الرابع من شهر كانون الأول، كتابه الأهم في العقيدة المسمّى «ينبوع المعرفة» في أواخر حياته، وتحديدًا بعد العام ٧٤٢، وذلك تلبيةً لطلب أخيه بالتبنّي قزما، أسقف مايوما قرب غزّة.

يقع هذا الكتاب في أجزاء ثلاثة، وتحفظ لنا المخطوطات القديمة من كلّ جزء نسخة موسعة ونسخة مختصرة، مما يدعو إلى الاعتقاد أنّ القدّيس يوحنا كتب أولاً نصًا مختصرًا، وعمد في ما بعد إلى توسيعه.

يتطرّق الدمشقي في الجزء الأول من كتابه هذا إلى عدد من التحديدات الفلسفيّة، متوخّيًا عرض أفضل ما تضمّنته الفلسفة اليونانية. والأرجح أنّه اعتمد في ذلك على كتاب «المقدمة الفلسفيّة» للفيلسوف الأفلاطوني المحدث بورفيريوس. إلاّ أنّ القديس لا يعرض من النتاج الفلسفي إلاّ ما كان منسجمًا مع الإيمان المسيحي وتعاليم الآباء الذين سبقوه.

في الجزء الثاني من الكتاب يعرض القديس يوحنا قرابة المائة من الهرطقات مستندًا، في عدد كبير منها، إلى كتاب القديس إبيفانيوس القبرصي (٣١٠-٤٠٣) المعروف باسم «باناريون» أو «صيدلية الهرطقات». بيد أنّ معالجة القدّيس الدمشقي بعض التعاليم المنحرفة

تشير إلى معرفة له بها عن كثب ممّا يدلّ على أنّ بعضها كان لا يزال ذا تأثير في زمنه.

لا شكّ أنّ الجزء الثالث والأخير من كتاب «ينبوع المعرفة» يشكّل تتويجًا لهذا السِفْر النفيس. فالقدّيس الدمشقي يعرض في هذا القسم، الذي غالبًا ما يُدعى «المئة مقالة في الإيمان المستقيم»، أبرز العناصر التي تؤلّف الإيمان الأرثوذكسي، مركّزًا على الثالوث والخلق والتجسّد والفداء والتعليم عن اليوم الأخير. ولئن كان القدّيس يوحنا يرتكز هنا أيضًا على من سبقه من آباء الكنيسة ومعلّميها، ولا سيّما على القدّيسين غريغوريوس اللاهوتي وغريغوريوس النيصصي وكيرللس الإسكندري ومكسيموس المعترف، إلاّ أنه يرتب العناصر ويدمجها بعضها ببعض ساكبًا عليها من فكره المنظّم وقدرة التمييز عنده بين المهمّ والأقلّ أهميّة، بحيث يطلع بخلاصة عقائديّة هي الأولى من نوعها في الأدب الآبائي. ولعلّ من أبرز ما يلفت القارئ لغة القدّيس الدمشقي التي تتميّز بالوضوح في التعبير مع مراعاة الإيجاز قدر الإمكان.

ما هي أهميّة هذا المؤلّف الذي أتى به الدمشقي قبل سنين قليلة من موته؟ لقد شهد القدّيس يوحنا طوال حياته صراع حضارات تمثّل بالحروب الدامية بين المسلمين والبيزنطيين من جهة، والمسلمين وملوك الغرب من جهة أخرى. والثابت تاريخيًّا أنّ المدّ الإسلامي في اتجاه أوروبا لم يتوقّف إلاّ في معركة بواتييه عام ٧٣٢. أمّا حملات الأمويين على آسية الصغرى فاستمرّت حتى عام ٧٣٩.تضاف إلى ذلك بدعة محاربي الأيقونات التي قامت في الإمبراطورية البيزنطية وسبّبت حروبًا دامت سنين طويلة، ممّا دفع الدمشقي إلى الدفاع عن إكرام الأيقونات في مجموعة من الكتب تُعتبر من أثمن ما تركه لنا. حيال هذه الاضطرابات العالمية التي لم توفّر الكنيسة، من المنطقي أن نفترض أنّ الدمشقي أراد الخروج بخلاصة عقائدية مكتوبة تحفظ للكنيسة والأجيال القادمة أهمّ ما جادت به الفلسفة من وجهة نظر مسيحيّة، وأبرز عناصر التعليم الآبائي العقائدي الذي كان قد تراكم خلال نيّف وسبعة من القرون. والحق أنّ القدّيس يوحنا لم يدّعِ الإتيان بجديد في هذا الكتاب، بل هو يشدّد على أنّ رغبته لا تتعدّى حدود تلخيص ما وضعه الآباء الذين سبقوه. بيد أنّ الملمّين بمؤلّفات الدمشقي يشيرون بكثير من التقدير إلى قدرته على تمثّل المادة التي جمعها وتنظيمها وترتيبها وتبويبها والتعبير عنها بلغة تتميّز بالجزالة والدقّة. ولا ريب في أنّ كتاب «ينبوع المعرفة»، وخصوصًا الجزء الثالث منه، قد حقّق الوظيفة التي رمى إليها واضعه، إذ بقي، شرقًا وغربًا،المرجع العقائدي الأول لكلّ من أراد الاطّلاع على أهم عقائد الكنيسة والمعيار الذي يحتكم إليه معلّموها كلّما ساورهم الشكّ في مسألة من المسائل اللاهوتية الدقيقة.

ندوة

يدعو المركز الأرثوذكسي للحوار والتبادل إلى حضور ندوة بعنوان «الفوارق الدينية، قراءة لاهوتية وعلمية»، يشارك فيها سيادة المطران جورج خضر والدكتور ميشال عواد والدكتور إيلي كرم والدكتور نقولا أبو مراد، وذلك عند السادسة من مساء الجمعة ١٤ كانون الأول ٢٠٠١ في قاعة «بتلوني» مقابل مستشفى القديس جاورجيوس. الدعوة عامة.

الناموس الحرفية فأنت مغبوط. لكن إن كنت تخالف العطلة لأي سبب لا معنى له فأنت تخالف الناموس بدون مبرّر ولذلك يُحكم عليك. إن حريّة أبناء الله لا تقيّدها حرفية الناموس لكن إن لم تأتِ هذه الحرّية من ضمير خلاصي فهي تكون خروجًا عن الناموس وعصيانًا له.

طوبى إذًا للذي يخالف السبت من أجل تتميم عمل محبة كما فعل يسوع. في هذا المقطع الإنجيلي كما في المقاطع الأخرى حيث يقوم يسوع بأعمال عجائبية نهار السبت، عندنا تصادم بين مفهوم يسوع عن الله ومفهوم رؤساء اليهود الدينيين. إن إله اليهودية هو سيّد التاريخ المطلق ومشرّع الناموس لشعبه، لذلك يستحق أن نحافظ على وصيته بصورة غيورة. ومطلب الله الكليّ في حادثتنا هذه هو حفظ البطالة السبتية.

لكن يسوع يكشف عن جانب آخر لله أعمق: يرى الله ليس فقط كربّ وسيّد متشدّد يتطلّب حفظ وصيته بل كأب حنون ممتلئ من المحبة من أجل خليقته.

الأستاذ كرافيذوبولوس